# صراع الذات والذات المضطهدة

## قراءة نقدية في قصة

## (اسرائيل وجدل الشيكولاته)

## للقاصة الليبية فوزية شلابي

أ. عبد المنعم جبار عبيد

المعهد العالي لإعداد المعلمين بزليتن

## المقدمة

لا يبدو عنوان قصة فوزية شلابي موضوع البحث رتيباً، بل إنه فقير منذ النظرة الأولى في القراءة الأولى لهذه القصة التي وقعت بين يدي بالمصادفة ، فشدتني من عنوانها المتناقض ، فقررت حينها أن أقوم بدراستها بعد أن أشبعتها قراءة، و إذا كانت القصة عملا أدبيا يراد له ان يكون شامخا، كما حصل لقصص الأديب الكبير انطوان تشيخوف، التي استطاعت أن تنزل المنزلة الأولى في هذا الفن، فان قصة الشلابي . موضوع البحث.. كانت إلى حد كبير قائمة على الإيحاء وليس على الإنباء؛ لهذا

ولغرض تسليط الأضواء على القصة العربية الليبية وما تحمله من مقومات فنية لم تحظ بنصيب وافر من الدراسة؛ كان اختيارنا هذه القصة موضوعاً للبحث، زد على ذلك ما فيها من مقومات فنية سنتطرق إليها في هذه الدراسة التي آثرنا فيها ذكر القصة كاملة:

(إسرائيل وجدل الشيكولاته

غمزت حبة المطر فاترينات الشارع ، وتدحرجت فوق الرصيف المكتظ.

لمحتها هي.

هرولت نحوها. التقطتها من بين أحذية المارة ، ثم أعطتها عنوان نافذة يجلس تحتها عاشقان وشمعة ساكنة.

رمتها بقبلة مشاغبة في الهواء ، واسترسلت في الضحك مثل طفل يناغي أمه.

كان بينها وبين موعده معها وقت يكفي جداً لشرب كوب من عصير البرتقال، وسقوط مشروع استئناف كتاب نقدي عند (الطيب صالح) تسبب فيه الرجل الذي يجلس على الطاولة المجاورة تتدلى على صدره نجمة سداسية !

هل هو إسرائيلي؟!

قفز بها السؤال إلى تجربة مطار فرانكفورت(!). فمنذ ثلاثة أعوام وعندما كانت في طريقها إلى باريس للمرة الأولى، توقفت لمدة ساعتين بمطار فرانكفورت في انتظار رحلة اللوفتهانزا إلى باريس.

جلست بإحدى استراحات المطار. ولم يكن معها أحد ، وكان عليها أن تقتل الوقت الثقيل بقراءة وجوه المسافرين حيث كانت قلقة ومتعبة ومأخوذة بمغامرة السفر إلى باريس وحدها لتقابل حبيبها ، وبحاجة إلى أن تقترب اكثر من تفاصيل هذه المغامرة اكثر من أن تهرب إلى كتاب يرافقها من طرابلس!

كانت هناك كل أجناس الدنيا. ألوانها.أمراضها.تناقضاتها. وحتى فضائحها!

تقدمت نحوها امرأة شابة ترافقها طفلتان. استأذنتها أن تجلس بالمقعد المجاور

فأذنت لها.

كان يمكن إن تكون هذه المرأة الشابة بلكنتها الأمريكية وطفلتيها مجرد وجه عابر يلقى في الدخان، ويبهت إلى أن يخرج من حدود البرواز !

لكن الطفلة الصغيرة ما كانت لتعطي فرصة لذلك !

كانت الطفلة شقية ولذيذة.

بدأت بمشاكسة المقعد الحديدي الذي تجلس عليه أمها ، وانتهت بمشاكسة قطعة الماستيكا التي تمضغها أختها.

اقتربت منها.نظرت إلى عينيها جيداً. سقطت نظراتها في بؤرة عينيها تماماً فارتبكت صور المسافرين !

أخذت الطفلة تقلب الصور وتعبث بالتفاصيل. تمزق بعضها، وتلق على البعض الآخر ألوانا غامقة، والبعض تطيره في الهواء !

يا صغيرة !

ابتعدي قليلاً. لا تحجبي عني قلبي !

أريد قليلاً من الهواء لابتلع ريقي.

أريد كثيراً من البذاءة !

تنهر الأم طفلتيها بعصبية واضحة. فتلتصق بها الصغرى، وتضم الكبرى إحدى الحقائب إليها بغضب.

تقرر هي استرضاء الطفلة بقطعة شيكولاته أو دمية مسلية.

في طريق عودتها بقطعة الشيكولاته يتناهى إليها حوار الأم وطفلتيها بلغة سبقتها احساساتها إلى اكتشافها وتحديد هويتها!

أيكون ذلك ؟!

تقترب اكثر. تتلعثم الأم وتنهر الطفلتين من جديد. تفك الكبرى شفرة أمها فتنظر إلى هذه القادمة وتسكت، وتواصل الصغرى كلامها بعبرية صريحة إلى حد الدهشة !

أذن. نحن هنا وجهاً لوجه !

تقول ذلك لقطعة الشيكولاته المرتبكة في يدها ، وتدخل أرشيف الدمار الدموي فتنفتح ذاكرتها على أسماء وأماكن وعدد كل الضحايا.. ولا تنغلق !

أنها إسرائيلية !

قليلاً. ثم تواصل:

–ولكنها طفلة ولا علاقة لها بما حدث. أو بما يحدث الآن !

تستدرك:
وماذا عن المستقبل ؟!
قد تكون بعد غد مجندة في جيشهم أو مواطنة من مواطنيهم – عموماً– الذين يقولون أن حياة ولدي النائم الان في حضن جدته تشكل خطراً على أمن دولتهم. وبالتالي لابد أن يموت هو لتعيش دولتهم !
تضغط على قطعة الشيكولاته في يدها. تزيدها عرقاً كثيراً.
أنها طفلة. واعترافي بغير هذا خيانة للإنسان فيّ.
يحتقن وجهها. تضيق المسافة اكثر بين حاجبيها. تصطك أسنانها.
أنها طفلة إسرائيلية. واعترافي بغير هذا خيانة لذاكرة الإنسان فيّ.
الإنسان الذي ليس تهويمات وجودية ، و إنما مؤسسة تاريخية تفعل وتنفعل !
سأعطيها قطعة الشكولاته. وسأقول لها أنى عربية. وان جيشهم قتل أطفالاً لنا في مثل عمرها ولا يزال يفعل ذلك يومياً. فقد تكبر وتتذكر ذلك وتقول لكل من حولها نحن نحاور أطفال العرب بالنابالم وهم يحاورون أطفالنا بالشيكولاته !
لا. لا ! لن أعطيها قطعة بالشيكولاته. لن ادعوها للرقص على جثة طفلي !
تعلن المضيفة الأرضية عن قيام الرحلة المتجهة إلى باريس. تلتقط حقيبتها وتركض نحو بوابة الخروج إلى الطائرة.... !
.....
هل هو إسرائيلي !
تسأل النادل عن الساعة.
أذن. بقي على الموعد خمس دقائق !
تطفئ سيجارتها. تترك بعض الفرنكات على الطاولة. تتحاشى النظر إلى الرجل المجاور ، وتخرج إلى الموعد!)[1].

تقوم القصة على مفارقة وصراع بين الذات الإنسانية الحرة ، والذات الإنسانية المضطهدة التي ترزح تحت اعتى أنواع القسر والظلم والاضطهاد؛ ذلك الصراع

[1] الأعمال الكاملة، الطيب صالح، دار العودة، بيروت، 1996:9–177.

يتجلى منذ عنوان القصة الموحي(إسرائيل وجدل الشيكولاته) الذي يعد مفتاحاً لما ستضمه سطورها، وإذا كان العنوان الذي هو(ثريا النص) ، فانه ينطوي في طياته على سلاسل من المفارقات، ربما كان أهمها ما ينطوي عليه من تناقض صارخ بين(إسرائيل) الدويلة الهجينة المزعومة المبنية على جماجم أبناء جلدتنا من المقتولين وعلى آلام المظلومين والمهجرين والمسجونين والمذلولين تحت سياط الاحتلال الوحشي القمعي، وبين ما يناقض ذلك ويجبّه ويقف على الجانب المقابل تماماً وهو المستقبل المرموز له بالطفولة المرموز لها بالشيكولاته وما تنطوي عليه من براءة وصدق وتجرد من كل ما يمكن إن يمت إلى الظلم بصلة قريبة أو بعيدة؛ لذلك فصراع هذه القصة جليّ من عنوانها الذي يختصر مضامين كثيرة.

إن نهوض القصة هذه متأت من ثنائية تقوم على الصراع بين الذات العربية صاحبة التاريخ الإنساني الحر الطويل وبين الذات المضطهدة؛ هذا الصراع يتجلى في ما عانته البطلة في عدة منطوقات بعد إن قررت استرضاء الطفلة بقطعة شيكولاته وفي طريق عودتها من شرائها تفاجأ بأنها تسمع لغة هي لغة المحتل القاتل؛ لذلك تتساءل:

أيكون ذلك ؟!

وذلك ينطوي على استغرابها وعدم استعدادها النفسي وعدم توقعها لرؤيتهم مباشرة؛ فحق لها أن تستفهم وتتعجب ، ثم تردف بعد برهة:

أذن. نحن هنا وجهاً لوجه !
ثم:
إنها اسرائيلية !
ثم:
ولكنها طفلة ولا علاقة لها بما حدث. أو بما يحدث الان !
تستدرك:
وماذا عن المستقبل ؟!
قد تكون بعد غد مجندة في جيشهم ! أو مواطنة من مواطنيهم – عموماً – الذين يقولون إن حياة ولدي النائم الان في حضن جدته تشكل خطراً على أمن دولتهم. وبالتالي لابد أن يموت هو لتعيش دولتهم !
ثم تقول:
إنها طفلة إسرائيلية. واعترافي بغير هذا خيانة للإنسان فيّ !

إنها طفلة إسرائيلية واعترافي بغير هذا خيانة لذاكرة الإنسان فيّ. الإنسان الذي ليس تهويمات وجودية ، و إنما مؤسسة تاريخية تفعل وتنفعل !
سأعطيها قطعة الشيكولاته. وسأقول لها أنى عربية. وان جيشهم قتل أطفالاً لها في مثل عمرها ولا يزال يفعل ذلك يومياً...
لا لن أعطيها قطعة الشيكولاته. لن ادعوها للرقص على جثة طفلي !.

و إذا أردنا تمثيل التغيرات في المواقف التي تتبعها تغيرات في المنطوق ، نستطيع أن نضعها بالشكل آتي الذكر:

| المرحلة النفسية | المقول | الزيادة |
|---|---|---|
| الشك | – أيكون ذلك ؟! | لازيادة |
| اليقين | – اذن. نحن هنا وجهاً لوجه!<br>– انها اسرائيلية | لازيادة |
| تأرجح | – ولكنها طفلة ولاعلاقة لها بما حدث او بما يحدث الآن ! | لازيادة |
| استشراف | – وماذا عن المستقبل ؟ قد تكون بعد غد مجندة في جيشهم ! | قد تكون بعد غد مجندة في جيشهم ! |
| تأرجح وحيرة | – انها طفلة اسرائيلية،واعترافي بغير هذا خيانة للانسان فيّ. الانسان الذي ليس تهويمات وجودية، وانها مؤسسة تاريخية تفعل وتنفعل ! | اسرائيلية ، واعترافي بغير هذا خيانة للانسان فيّ.الانسان الذي ليس تهويمات وجودية ، وانما مؤسسة تاريخية تفعل وتنفعل ! |
| الاستقرار القلق | – سأعطيها قطعة الشيكولاته... | لازيادة |
| الاستقرار الحقيقي | – لا.لا. لن اعطيها قطعة الشيكولاته... | لا.لا.لن اعطيها قطعة الشيكولاته... |

ومن هذا الشكل نستطيع أن نتلمس مدى حيرتها وصراعها الدائر بين كونها انسانة وكون الطرف الآخر طفلة ثم تأخذ بإعطاء المسوغات لهذا المنع كما تبين ، منها هاهو ماض كالأرشيف الدموي وقتل أطفال العرب ومنها مستقبلي كتوقع كون الطفلة مجندة في الجيش الصهيوني غداً أو بعد غد.

**المنظور السردي**

تمثل قصة ( اسرائيل وجدل الشيكولاته) مجموعة من النواحي (الأيدلوجية) العقيدية، والنفسية، والإنسانية وتدور ضمن هذا الفلك؛ فعلى صعيد الأيدلوجية استطاعت القاصة أن تتمثل أسمى القيم النبيلة التي يحملها الإنسان العربي ، وذلك على لسان بطلتها التي تركتها من دون اسم؛ ربما لتحمل اسم كل العربيات اللواتي يحملن الآمال والآلام نفسها، والتي تكون القاسم المشترك بينهن جميعا"، زد على ذلك انشغال البطلة بقراءة كتاب نقدي عن( الطيب صالح) الذي يعد من احسن من ابدع وبخاصة في روايته ( موسم الهجرة إلى الشمال)؛ لانه تناول فيها تصوير العلاقة بين الشرق والغرب؛ لذا لم يكن اختيار الطيب اعتباطا" ، بل جاء نتيجة" لذلك الجالس إلى جانب البطلة حامل النجمة السداسية الذي يمثل اعمق ما يكون الغرب؛ لانه الغرب المزروع وسط الشرق.

من ذلك جاء ذكر (الطيب صالح) الروائي العربي السوداني الكبير الذي تناول في ( أعماله الكاملة)[2] وبخاصة في الأبرز منها وهي(موسم الهجرة الى الشمال) ذلك الصراع الغربي الشرقي ،من خلال بطله مصطفى سعيد.

يعالج فيها الراوي اتجاه البلدان النامية نحو منجزات الحضارة الغربية و( ولا يتوقف عند هذا الحد بل يمضي إلى أن يضع الجواب على تساؤلاته، وهذا الجواب يحمل في طياته رفضا" تاما" وقاطعا" لمجمل الحضارة الغربية، بما فيها من وجوه وجوانب خيرة أو شريرة)[3]، ويرمز للحضارة الغربية بغرفة البطل مصطفى سعيد التي يتطلع إليها الفلاح محجوب ويظن أن (الكنوز التي في هذه الغرفة هي كنوز الملك سليمان حملها الجان إلى هنا...)، في حين يجيب الطيب انه:(لاشيء لاشيء

---

[2] في أدبنا القصصي المعاصر، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1989: 101-102.

[3] ينظر النقد الأدبي قضاياه واتجاهاته الحديثة، د.عماد حاتم، دار الشآم للتراث، بيروت،1988:19.

إطلاقا". هذه الغرفة تعد نكتة كبيرة ، كالحياة تحسب فيها سرا" وليس فيها شيء اطلاقا") ، وهو بالتالي يحكم على تلك الحضارة الغربية التي عاد منها بطله بالفراغ والخواء؛ لذلك نستطيع القول: إن اختيار القاصة قتل فراغ البطلة بانتظارها للرحلة الجوية بقراءة كتاب نقدي عن الطيب صالح، لم يأت اعتباطاً، بل إنه يدل على كهانة ما سوف يقع بعد لحظات من تداع بسبب الرجل حامل النجمة السداسية الذي سبب هذه القراءة؛ فالبطلة تقرأ عن خواء الحضارة الغربية التي أوجدت هذا الكيان العقيم في بلاد العرب،وتستعيض بتلك القراءة عن النظر إلى حامل النجمة السداسية نفسه،وكأنها تقول له: إنكم من أبناء تلك الحضارة الخاوية،ولا جذور لكم،وحياتكم وكيانكم كله نكتة كبيرة؛ وبهذا نستطيع تفسير تلك القراءة؛ لأن اسم الطيب صالح ونقد رواياته لا يمكن حمله على أنه كأي قراءة أخرى؛ ففي العمل الأدبي الإبداعي لا يمكن حمل شئ على الصدفة والاعتباط، وإن كان المبدع غير قاصد ذلك في وعيه،إلا أنه في لا وعيه الإبداعي يختار تلك المفاتيح المترابطة شعورياً على الأقل.

ونستطيع تلمس عدة ثنائيات تدور في دائرة هذا المنظور الذي أشرنا إليه، وتدور كلها في مجال موقف المواجهه، مثل:

- ☒ الأنا والآخر .
- ☒ البراءة والعدوانية .
- ☒ الماضي والحاضر .
- ☒ الشرق والغرب .
- ☒ العربي والاسرائيلي .

وتتجلى كل تلك الثنائيات في موقف البطلة من ترددها في إعطاء الطفلة ذات اللكنة العبرية قطعة الشيكولاته، والسؤال المطروح هو: ما سبب ذلك ؟، لذلك أخذت تعطي المسوغات،كما أن صراعها لم يكن صراعا بين الأنانية والإنسانية المعطاءة، فلم تكن تريد أن تحرزها لنفسها، لأنها أصلا قررت إعطاءها قبل سماع لغتها ومعرفة هويتها، ولكن الصراع كان بين البراءة والعدوانية،بين الماضي الدموي الإسرائيلي والمستمر وبين اللحظة التي تقف فيها البطلة أمام طفلة لذلك الكيان، انه جزء من صراع الشرق والغرب،بين العربي والإسرائيلي،يتجلى في هذا الموقف اللحظي الذي وضع البطلة الانسانة أمام هذا الشريط الطويل القصير في اللحظة، لذلك قررت الإعطاء،لتظهر لها الفرق بين حوار الأطفال بالشيكولاته، وبين حوارهم بالقنابل، ولكن يبدو أن فكر البطلة دفعها إلى اكثر من ذلك،واستطاعت معه أن تنتصر على

عاطفتها التي أصبحت مسيسة،لذلك اتخذت القرار الأخطر والاهم بقولها: (لا. لا. لن أعطيها قطعة الشيكولاته. لن ادعوها إلى الرقص على جثة طفلي)، مع ملاحظة التوكيد في النفي بتكرار الحرف(لن)التي تفيد التأبيد.

**ثنائيات السرد الزمكانية**

**ا.الزمان**

يقسم الزمن في السرد القصصي إلى: الزمن الاسترجاعي، والزمن الاستباقي، وكالأتي:

***1.الاسترجاع:***

هو مجموعة الأحداث والذكريات التي يعمد إليها القاص على لسان السارد (القاص أو البطل)، وقصة فوزية شلابي موضوع البحث تقوم في معظم مساحتها القصصية على ذلك،لأنها لا تنفك عن ذلك إلا في بدايتها التي جعلتها مدخلا للارتباط الذي حصل من رؤيتها الرجل حامل النجمة السداسية (...تسبب فيه الرجل الذي يجلس على الطاولة المجاورة تتدلى صدره نجمة سداسية)،ومنذ ذلك الحين بدأ عندها أي البطلة الاسترجاع وذلك بعد قول القاصة: (قفز بها السؤال إلى تجربة مطار فرانكفورت...) وتستمر بهذه الطريقة إلى أن تشارف الوصول إلى نهاية القصة عندما تعلن المضيفة الأرضية عن قيام الرحلة المتجهة إلى باريس...) وبذلك يكون الزمن الاسترجاعي هو الزمن المهيمن والطاغي على المساحة القصصية، وبذلك نستطيع القول: ان القصة برمتها استرجاعية محضة، قامت على تذكر زمن مضى وانقضى،لكن الحدث المقترن به على الساحة العربية لمّا يزل قائما.

***2.الاستباق:***

هو استباق الزمن الحاضر، والقفز بواسطة الاستشراف المستقبلي،ويجدر بالذكر أن هذه القصة لم تقم بذلك إلا في موضعين، أحدهما: قولها:وماذا عن المستقبل ؟ !قد تكون بعد غد مجندة في جيشهم أو مواطنة من مواطنيهم...) ،أما الآخر فقولها: (قد تكبر وتتذكر ذلك وتقول لكل من حولها نحن نحاور أطفال العرب بالنابالم وهم يحاورون أطفالنا بالشيكولاته)، وتتجلى عملية الصراع في هذين الاستباقين: بين كون الطفلة مستقبلا مجندة او كونها متذكرة لهذه الهدية من العرب وفرقها عن حوار أطفال العرب بالنابالم.

لقد جاء الزمن الاستباقي في ثنايا مساحة القص التي تدخل ضمن الزمن الاسترجاعي وخلاله، والملاحظ أن القرار الأخير في عدم إعطاء الشيكولاته تأرجح بين هذين الاستباقين، زد على ذلك الأرشيف الدموي الذي تذكرته كاملا؛ لذلك كان اثر الاستباق الأول اكثر وقعا واكثر عمقا واشد تأثيرا في صنع القرار؛لأنها قد تكون مجندة في جيشهم اكثر من كونها متذكرة للشيكولاته، فجاء قرارها مستندا إلى الاستباق الأول ومفضلا له.

**ب.المكان:**

استعملت القاصة مكانين يؤدي أحدهما إلى الآخر،المكان الأول: هو الذي كانت تجلس فيه البطلة تنتظر الحبيب، وهو كما يظهر مكان عام مفتوح أليف انتقلت منه إلى مكان اكثر انفتاحا، وهو المطار،ويمكن أن نعدّ هذا المكان مكان عتبة للخروج منه إلى كل أماكن وبلدان الدنيا، أو انه يمثل العالم؛ لانه يضم (كل أجناس الدنيا. ألوانها. أمراضها. تناقضاتها. وحتى فضائحها) إذن هو العالم الذي اختصر في هذا المكان، وفيه يتلاقى الواتر والموتور، القاتل والضحية،من دون أن تفصل بينهما حدود فاصلة بسبب كونهما دولا أو كيانات أو أمما أو مجاميع أو أديان؛ لأنهم فيه أي: المطار كلهم على صعيد واحد.

إن اختيار المطار مكانا لمسرح القصة اختيار صائب كل الصواب؛ فقد يكون اللقاء في مكان أخر،كساحة معركة مثلا،ليس غريبا؛ لانك تلتقي عدوك فيه؛ وتعرف من أمامك،أما إذا التقيته في مكان لا تتوقع رؤيته فيه، فذلك ما قد يحصل وقد يكون فيه عنصر مفاجأة في رأي البطلة على الأقل ومن ورائها القاصة التي أرادت لبطلتها أن تواجههم،وان تضعها في هذا الموقف لتصل بقصتها إلى (الذروة)[4] التي تقابل فيها المجرم والضحية وجها لوجه.

[4] معجم القصاصين الليبيين قصاصون صدرت لهم مجاميع، عبدالله سالم مليطان، مداد للطباعة والنشر والإنتاج الفني، طرابلس،2001: ج1/363-663.